الذكرى المئوية لرحلة لامرتين الى الشرق

لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم انـ سركيس

٢

لامرتين في لبنان وسوريه

لامرتين والشرق

في ١١ تموز سنة ١٨٣٢ ، ابحر لامرتين من مرسيلية ، قاصداً الشرق ، على المركب الشراعي « لالست » (*L'Alceste*) ، الذي استأجره لهذه الغاية . وكان يصحبه في رحلته هذه امرأته ، وابنته الوحيدة جوليا الضعيفة البنية السقيمة الصحة ؛ واميده دى پرسڤال (Amédée de Perseval) الذي كان يحبه كشقيق ؛ ورفيقان آخران هما السيد دي كمپا (De Campas) ، والطبيب لارويير (La Royère) ؛ ثم ستة خدام . وقبل ان يغادر شواطئ فرنسة ، موّن مركبه بالاسلحة ، وحصّنه بثلاثة مدافع ، ليحمي نفسه ومن معه من قرصان اليونان في الارخبيل .

ان هذه الرحلة كانت في نفسه منذ زمن بعيد . غير ان حالته المالية لم تسمح له باتمامها ؛ فقد كتب في رسالة الى احد اصدقائه : « لو قدر لي ان اجمع مئة ليرة لا غير ، لزرت بلاد اليونان واورشليم ، حاملاً عصاً وهميانـاً ، وآكلاً خبزاً قفاراً . » اما الآن ، وقد نال ، بزواجه من سيدة انكليزية غنية ، ثروة تساعده على تحقيق احلام صباه بزيارة الشرق ، « منشأ مخيلته » [1] فها هو ، بعد

١) كتاب الرحلة الى الشرق *Voyage en Orient*. éd. 1841. Paris. p. 1 — واليه نشير في ما يلي من المآخذ .

هدوء العواصف السياسية التي مرّت بفرنسة على اثر ثورة تموز ١٨٣٠ ، ويأسه من الحصول على كرسي في الحكومة الجديدة ، تسكن موقتاً في قلبه نار الرغبة في تمثيل دور سياسي ، ويستعدّ لتحقيق « حلمه الذي رافقه منذ الطفولة . »[1]

اسباب الرحلة الى الشرق

ولا بدع ان يكون للشرق هذا المقام في قلب لامرتين . فهو سليل اسرة اشتهرت بتقواها ومحافظتها على التقاليد الدينية . وكان اول كتاب تعرف اليه نسخة مصوّرة من الكتاب المقدّس ، علمته امه القراءة فيها . فكانت بعد كل امثولة ، تشرح له مغازي الصور فيتأملها مليًّا . ولم يبلغ الثامنة من عمره حتى كان يحن شوقاً الى « بلاد الكتاب المقدس » حيث جرت الحوادث التي دعاها واحبها قلبه الصغير . « لان المسافة بين حبّ الحوادث ، والرغبة في رؤية المواضع التي جرت فيها ، ليست بطويلة . »[2]

وتقدم في السن ، فاذا باوربة تموج لحرب اليونان وما يجري في هذا « البلد المسيحي البعيد » من المآسي ؛ واذا بكتّاب فرنسة ، من شعراء وناثرين ، يميلون الى هذه البقعة من الارض ، فيتمثلون فيها الشرق المظلوم ، وينظمون عنها كل ما يعرفونه ، تاريخاً كان ام اسطورة . واذا ببلاد اليونان خاصة والشرق كله عامة ، قبلة لانظار الادباء ، لا سيما الوجدانيين منهم (Les Romantiques) ؛ واذا بلامرتين — وهو اكبر الوجدانيين — يزداد شوقه الى هذه البلاد !

وفي هذه الاثناء نشر الكاتب الكبير شاتوبريان (١٧٦٨–١٨٤٨) ، بعد رحلته الى الاراضي المقدّسة ، كتابه المعروف باسم «رحلة من باريس الى اورشليم» (١٨١١) (*Itinéraire de Paris à Jérusalem*) . فكانت قراءته وتأمل ما فيه من الاوصاف الشعرية ، المتدفقة بالصور الخلّابة ، باعثاً جديداً هيّج شوق لامرتين الى زيارة المعالم الاغريقية ، والبلاد السورية ، ولا سيما الارض التي عاش فيها السيد المسيح .

كل ذلك أثّر في نفسه تأثيراً جعله ، حتى في عهد شكوكه وحيرته الايمانية

١) الكتاب نفسه ١ : ١ ٢) الكتاب ١ : ٢

ذاتها ، يعتبر ان الصعوبات الدينية لا تجد حلولها الا في الشرق ، منشأ الديانات الالهية .

زد على ذلك انه كان يشعر بضرورة تجديد ينبوع الهامه . لانه « كشاعر عاطفي ، اعتاد فهم اللغة الرائعة التي يتكلمها الله بلسان اعماله . ولما كان قد تشبّع من الالفاظ المؤانفة ، لا من اصوات عقيمة ، بل من جبال بلاده ، واحراجها ، وانهارها ؛ فقد كان يريد ان يسمع صوت الطبيعة خارجاً عن اوربة . . . »واليك ما قال في هذا الموضوع : « ان نفسي كانت تعشق بحور الشرق ، وصحراواته وجباله ، وعوائده ، وكل آثار الله فيه . »[1]

عدا انه كان يريد نظم ملحمة شعرية كبيرة يجعل من الشرق مسرحاً لها . فقال ، خاتماً البواعث التي حملته على المجيء الى الشرق : « فاذا اراد الله ان يستجيب صلاتي ، فاني اسأله ملحمة تكون حسب رغبتي وطبق ارادته . »[2]

لامرتين وبلاد اليونان

اخذ لامرتين طريقه من مرسيلية الى شواطئ لبنان ، مارًّا مرًّا سريعاً بمالطة ، واليونان ، ورودس ، وقبرس ، مؤجلاً زيارة هذه البلدان زيارة مطولة الى حين رجوعه .

لكنه ، بخلاف سابقه شاتوبريان ، لم يجد في بلاد اليونان ما كان يتوقعه فيها من الجمال الطبيعي والفني . واليك شيئاً مما قاله في هذا الموضوع ، بعد ان زار احدى المدن اليونانية :

« ليست دار مجلس الشيوخ سوى سقيفة من خشب . . . اني اسأل نفسي ، وانا في بلاد اليونان . . . التي اصبحت شيخة بقبر نبشت منه العظام : اين ذلك الجمال الذي لُفت الدنيا من تقاريظه ؟ . . . اين سماء اليونان الذهبية الصافية ؟ . . . لا ارى الا جوًّا مظلماً كدرًا »[3]

وقال بعد زيارة البارثنون ، آية الفن اليوناني ، واثمن آثار الهندسة القديمة : « ان تأثير هذا البناء لا يناسب في شيء ما ينتظر من مثله . . . فان ما نثره عنه السياح والشعراء والمصوّرون ، من الاقوال الفخمة المذّابة ، يقع في نفسك موقع الاسى ، عندما تقع

---

١) الكتاب ١ : ١٤ ٢) ك . م . ١ : ٢١

٣) ك . م . ١ : ١٠٠-١٠٢

عينك على هذه الحقيقة ، فتجدها بعيدة جداً عن صورهم اليانعة ! » (١)

ومن المفيد ان نحتفظ بهذه الاحكام لنقابلها بما سيقوله لامرتين عن لبنان. فان بين احتقاره لبلاد اليونان واعجابه ببلادنا لوناً شاسعاً.

في بلادنا

في بيروت

وفي ٦ ايلول ، بعد اربعين يوماً قضاها في البحر المتوسط ، بلغ الى دار امنيته « الارض المقدسة ، حيث جاء من بعيد يفتش عن تذكارات الانسانية الاولى » و« يتأمل اعمال الله في اجمل بلدان العالم . » (٢)

ولقد كانت دهشته ومسرته عظيمتين ، عندما اقترب المركب من الشاطئ وظهرت امامه ذرى لبنان ، سابحة في الغمام . قال يصف هذا المشهد وتأثيره عليه ، بعد اول نظرة :

« ان للبنان ميزة لم ارها لا في جبال الالب ولا في الطوروس . فهو مزيج من السناء والجلال ، في خطوطه وفي ذراه ، مع التناسق في التفاصيل والتنوع في الالوان . . . انه بالحقيقة جبل فخم كاسمه ! » (٣)

نزل الى بيروت فحل ضيفاً في دار القنصلية الفرنسية ، وفي اليوم الثاني استأجر بيتاً « على اقدام لبنان ، تحيط به البساتين ، يقع الى جانب المدينة على مسافة عشر دقائق منها » (٤) . فآوى فيه امرأته وابنته التي زادها سفر البحر ضعفاً على ضعفها . واخذ يعدّ العدد اللازمة للسياحة في البلاد ، مبتدئاً ببيروت وجوارها . وقد كان اعجابه بمجرج الصنوبر وطيب هوائه عظيماً ، حتى انه قال في ختام وصفه : « هذا ملتقى احلامي ! فسارجع اليه كل يوم . » (٤)

ولقد كان لوجود لامرتين وعائلته في بيروت مظهر لم يُعهد من قبل ، على ما يظهر . فان اللبنانيين لم يكونوا معتادين ان يروا من الاوربيين الا رجال التجارة ، الآتين لكسب المال او لمآرب شخصية اخرى . ولذلك ، عندما عرفوا ان هذا الشاعر لم يأتِ بلادهم الّا للتمتع بجمال الطبيعة ، ودرس الاخلاق ،

---

١) ك . م . ١ : ١١١
٢) ك . م . ١ : ١٨٢
٣) ك . م . ١ : ١٥٦
٤) ك . م . ١ : ١٦٨

واكتساب عواطف جديدة ، تعزّت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، واحتفوا به احتفاء عظيماً ، مقدّمين له تحيتهم وصداقتهم ، الى حدّ جعله يقول :

«ان ساحة بيتنا مملوءة ابداً من اهل الجبل والمشايخ ، والرهبان ، والنساء ، والاولاد . . . يجيئون من مسافات تقارب المئة كيلومتر احياناً ، ليسلموا علينا ويطلبوا بعض ادوية ، عارضين علينا الضيافة ، اذا كان في عزمنا المرور في اراضيهم . واكثرهم ، اذا لم اقل كلهم ، يجيئون امامهم هدايا لطيفة من خمر البلاد وفاكهتها . ونحن بدورنا نستقبلهم بشاشة ؛ ونقدم لهم القهوة والغلايين والمرطبات . ثم نهدي اليهم شيئاً لائقاً ، كقطعة من القماش اوربية ، او بعض الاسلحة او ساعة او شيء آخر من الحلى والمجوهرات . . . فيرجعون مسرورين من استقبالنا ويذيعون في كل مكان صيت الامير الافرنجي . . . هذا هو الاسم الذي اطلقوه عليّ ! . . . امير الافرنج ! » (١

امير الافرنج (*Prince des Francs*) ! . . . هكذا فهم لامرتين معنى الامير الافرنجي (*Emir Franc*) . ولا ندري اكان ذلك اقتناعاً بانه اصبح حقاً اميراً لاوربة ، ام ان في ذلك يداً لتملّق التراجمة وترفّعهم .

لامرتين في عرس شرقي

في ١٥ من شهر ايلول ، احتفل في بيروت بعرس ابنة حبيب بربارة ، صديق لامرتين وجاره ، « الذي وجد فيه قلب الصديق الحقيقي » (٢ فكان سروره بحضور هذا الاحتفال عظيماً لانه اطلعه ، منذ الايام الاولى لوصوله ، على مظهر هام من عوائد البلاد .

وقد دعيت السيدة لامرتين مع ابنتها الى حمام العروس . فوصفت لزوجها ما جرى في هذا الحمام الذي دام النهار كله ، واشتركت فيه اكثر من مئتي امرأة . فعلق كل ذلك في مذكراته ؛ وكان اشد ما أثر فيه — او بالاحرى ما اثر في قريحته — « زغاريد » النساء للعروس .

ونحن الذين بدأنا نتناسى عوائد بلادنا القديمة ، لا يمكننا اليوم ان نفهم ما تحدثه من الجلبة ثلاثون او اربعون امرأة يصحن كلهنّ بصوت واحد ، في مكان كل نوافذه محكمة الاغلاق ، كما هي حالة الحمامات العربية .

على ان عادة الزغاريد ، او الزلاغيط ، حسب اللفظ السوري ، لا تزال

١) ك . م . ١ : ١٨٢-١٨٣ ٢) ك . م . ٢ : ١١٧

معروفة في كثير من قرى لبنان ، ومشهورة في المدن والقرى الداخلية . فيحسن بنا اذن ان نسمع لامرتين يصف هذه الموسيقى . قال:

« عندما تمّ اجتماع النساء كلهنّ ، تصاعدت في الحمام انغام مستهجنة . فان بعضاً من النساء ، لا يغطي القسم الاعلى من اجسامهنّ سوى شفٍّ احمر ، اخذن يصحن باصوات مزعجة كئيبة ، حادّة ، لاعبات على الزمارات ، ضاربات على الدفوف . ودامت هذه الموسيقى النهار كله . فكان منها ان افسدت غبطة الحضور بما ادخلته على هذه الخفة من الجلبة والمغالاة في التشنّج الذي لا يخرج عن حدود البربرية . » (١

« لا جدال في الذوق »، يقول المثل . فليس لنا اذن ان نحقد على لامرتين لان اذنه المعتادة سماع الناي والقيثارة لم تلتذ بزغاريد النساء ، التي يعجب لها ابناء البلاد . اما عن الرقصة العربية المعروفة بالدبكة فيقول : انها « خالية من اصول الفن ، لكنها ليست خالية من الاناقة والجمال . »(٢

وقد تطرّق الى وصف ازياء النساء في الحفلات وخارج المنازل . وذكر تجلببهن « بالمنشفة » وهي « احرام او شرشف واسع من نسيج ابيض ذهبي ، يغطي ملابس النساء الثمينة بكاملها ، حين خروجهنّ من المنازل . »(٣

ولا يزال استعمال هذه «المناشف» جارياً في كثير من قرى سورية الداخلية .

عند استير استنهوب

ولم يمضِ خمسة عشر يوماً على وصول لامرتين ، حتى هيأ « قافلة من ٢٥ حصاناً ، يقودها كثير من التراجمة والخدّام والاعراب والمصاروة . . . » . وكان قنصل فرنسة في بيروت وحاكم لبنان من قبل ابراهيم باشا قد سمحا له باستخدام « قواسة » في بيته وفي اسفاره . فسر كثيراً بذلك لانه مما يساعده على السفر بامان ، اذ يظهره بمظهر العظمة والاقتدار .

وفي اوائل تشرين الاول سار الى صيدا ، ليزور السيدة استنهوب ، في خلوتها قرب جون . فتعرف اليها ، واستضافها . وجرى له معها حديث طويل ، افاض فيه كل منهما بمكنونات فؤاده .

---

١) ك . م . ١ : ١٧٨

٢) ك . م . ١ : ٢٦٠

٣) ك . م . ١ : ١٧٦

اما هذه السيدة العجيبة ، التي شغلت افكار كثير من كتاب الغرب ، فهي ابنة اخت المستر پيت (Pitt) ، الرجل السياسي الشهير (١٧٥٩–١٨٠٦) . تركت بلادها ، انكلترة ، رغم غناها وجمالها وما ينتظرها من المجد . فاقامت مدة في عواصم اوربة . ثم رحلت الى الشرق ؛ وبانت سورية بعد اخطار كثيرة في البحر . فتعلمت لغة البلاد وعوائدها . وانفردت في قصر قديم في قرية جون ، قرب صيدا ، عاشت فيه عيشة الملوك والامراء الشرقيين ، بعد ان اقامت مدة في تدمر تنفق على الاعراب عن سعة وافرة وتقدم اليهم الهدايا الثمينة ؛ حتى اكتسبت قلوبهم اليها ، فاصبحوا يأتمرون بامرها ، واطلقوا عليها لقب « ملكة تدمر » .

وكانت تدّعي روح النبوءة وتنتظر مجيء مسيح مصلح ، تكون هي ساعده الايمن . ولها في ذلك قصص غريبة . لكن لم يعرف احد بالتحقيق شيئاً عن اخلاق هذه السيدة واطوارها ومقاصدها ، رغم ما بذل في سبيل ذلك من الجهود ، ورغم ما ألّفه عنها كتاب الغرب مثل موريس باريس (Maurice Barrès) وپول ـ هنري ـ بوردو (Mme Paule — Henry Bordeaux) ولامرتين في رحلته الى الشرق ، وغيرهم .

اما غاية لامرتين من زيارته لاستير استنهوب ، فكانت ، اولاً ، التعرف الى شخصية غريبة كشخصيتها ؛ ثم الاستعانة بنفوذها لدى الاعراب على سياحة هادئة امينة في البلاد السورية . لذلك نراه يخصّها باول سفرة خارج بيروت . والحق ان تعبه لم يضع ؛ فقد عرف بالاختبار ، في اثناء اسفاره ، ان تأثيرها على البدو افاده اكثر من مرة .

عند الامير بشير

دير القمر — وبيت الدين

خرج لامرتين من عند استير استنهوب ، قاصداً دير القمر ، عاصمة لبنان اذ ذاك . فبلغها عند الظهيرة . وقد اعجبته مناظرها الطبيعية ايّما اعجاب ! اما عن مقامها العمراني والسياسي فيقول : « ان ليس عليها شيء من سمة المدن ،

فكيف بمسحة العواصم ! »[1] اجل ! ان دير القمر ليست على شيء من فخفخة العواصم وعمرانها ، اذا شاء لامرتين ان يقيسها بباريس عاصمة بلاده ! . . .

ولكنه على كل حال حفظ لها في قلبه — ومذكراته — موضعاً رحباً ؛ لان اشجار الحور التي اظلّته في واديها ، لاول مرة بعد مغادرته وادي ماكون ، ذكرته بايام صباه المذبة وتنزّهاته بين الحور على ضفاف « الصون » فهيّجت في قلبه ذكرى بلاده .

ولم يُطلّ على قصر « بيت الدين » من اعالي « الدير » ، حتى صرخ صرخة الدهشة والاعجاب ، وبدافع غير اختياري ، اوقف حصانه يتأمل ذلك المشهد الجديد في مناظره الشرقية الفتّانة . »[2]

هذا كان تأثره من منظر القصر الخارجي وما يحيط به من المظاهر الطبيعية. ولكن منظراً آخر ، ادعى الى الدهشة ، كان ينتظره في الداخل . ذلك ان خيّالة الامير ، عند وصوله الى الساحات الداخلية ، كانوا يلعبون على ظهور الخيل ويتسابقون في رمي الجريد ، الامر الذي سرّه ولذّه كثيراً . وقد اعجب لامرتين بهذه الالعاب ، حتى انه لم يرها مرة في اسفاره الا اعاد ذكرها وتناولها بالوصف من جديد .

استقبله الامير بشير بلطفه وكرمه المشهورين واضافه في جناح من قصره ، اقام فيه معزّزاً مكرماً ؛[3] وكان يحضر المجالس الادبية ، والمساجلات ، والمناظرات بين شعراء البلاط ، فوصف كثيراً منها في كتابه . من ذلك ان « احد كتاب الامير ، وهو من اشهر شعراء البلاد العربية اذ ذاك . . . بعث اليه بابيات . . . تشوبها الزخرفة والتلاعب اللفظي . . . ولكنّ فيها . . . مقدرة في الفن وتناسقاً في الافكار ارفع بكثير مما يتصورونه عنها في اوربة . »[4]

ودونك الآن ما قاله في وصف مجالس المدح الرسمية :

---

١) ك. م. ١ : ٢٥٥ ، ٢) ك. م. ١ : ٢٢٠

٣) في قصر بيت الدين غرفة يسمونها اليوم « غرفة لامرتين » لكن لا يعرف بالتحقيق هل هي التي سكنها لامرتين ام غيرها .

٤) ك. م. ١ : ٢٢٠

« بعد العشاء بعث الينا الامير بعضاً من منشديه وشعرائه ؛ فارتجلوا ابياتاً في مدحنا . وفي حاشية الامير اشخاص مكرسون لهذا النوع من الحفلات . فهم يمثلون الدور ذاته الذي كان يمثله التروبادور (*Les Troubadours*) في قصور الاجيال الوسطى . . . يقفون منتصبين وراء دست الامير او بنيه ، على طعامهم ؛ وينشدون القصائد في مديح سيدهم ، او في مديح الندماء الذين يشاء سيدهم ان يبالغ في اكرامهم . نقل لنا الترجمان بعضاً من هذه النخب الشرية ، فوجدناها ، بوجه الاجمال ، قليلة المعاني ، كثيرة التكلف ، حتى اننا لا نستطيع ان نترجمها بافكار وصور تناسب لغاتنا الاوربية . » (١

لكن لامرتين ، على الرغم من هذه الصعوبات ، ترجم قطعة مما انشد في اكرامه ، ننشرها هنا بنصها الفرنسي تفكهة للقراء ، اذ لم يسعدنا الحظ ان نجد اصلها العربي . وهي مقابلة بين مركب الاوربي ، السابح في البحار ، وحصان العربي ، « الطائر » في الجبال :

Votre vaisseau avait des ailes ; mais le coursier de l'Arabe a des ailes aussi;

Ses naseaux, quand il vole sur nos montagnes, font le bruit du vent dans les voiles du navire,

Le mouvement de son galop rapide est comme le roulis pour le cœur des faible;

Mais il réjouit le cœur de l'Arabe.

Puisse son dos être pour vous un siège d'honneur et vous porter souvent au divan de l'Emir (٢

ولم يضع لامرتين فرصة اقامته في بيت الدين سدى . فقد تقصى عن حياة الامير بشير وسياسته وحروبه ، ونشر من كل ذلك فصلاً في مذكراته في ٢٢ صفحة[٣] من طبعة ١٨٤١ . هذا عدا ما ذكره من وصف القصر وسكانه والحياة الادبية فيه.

وفي ٣ تشرين الاول ، ودع « الامير الافرنجي » الامير اللبناني شاكراً له حفاوته وكرمه ، بعد ان اقام في ضيافته عشرة ايام . وخرج في حاشيته قاصداً بيروت . فاصحبه الامير بشير بعدد من خيالته ليدلوه على الطريق ، ويقوموا بحراسته الشرفية. (له صلة)

١) ك. م. ١ : ٢٢٠-٢٢١ ٢) ك. م. ١ : ٢٢٠

٣) ص ٢٢٢-٢٥٥ ، في الجزء الاول.